بين الإسلامية والعربية

صفحة موجزة من التاريخ

للأستاذ علي الطنطاوي

لما أراد الله أن يتم على العالمين نعمته ، ويختم فيهم رسالته ، وينزل عليهم (الكتاب) الذي ما فرط فيه من شيء ، الجامع لكل ما يسعدهم في أولاهم وأخراهم ، الخالد الذي تعهد عز وجل بحفظه وكفل حمايته ، اختار الله لرسالته محمداً رجلاً من العرب لا من الروم ولا من الفرس ، فأنزل عليه وحيه ، واختصه بفضله وهو أعلم حيث يضع رسالته ، وبعثه في (مكة) أم القرى، لم يبعثه في (روما) أم المدائن ، ولا في (قصبة فارس) ذات الإيوان ، وأمره أن يبدأ بقومه من قريش فيدعوهم ، وبعشيرته الأقربين من هاشم فينذرهم ، وأنزل عليه القرآن كتاباً عربياً لم ينزله بلغة روم ولا يونان، منة امتنها الله على العرب ، ونعمة أفردهم بها ... وكان العرب — على كريم خلالهم ، وجميل سجاياهم ، وأنهم لم تفسدهم الحضارة التي أفسدت غيرهم من الأمم — في جاهلية جهلاء ، وضلالة عمياء ، وتنازع واختلاف ، ذوي عصبية جاهلية يقاتل الرجل منهم أخاه على بكرة ، ويزاحمه على قطرة ، إن دعوا فإلى جامعة القبيلة ورابطة العشيرة ، وإن نادوا فبيا لتغلب ويا لبكر ويا لعبس ويا لذبيان ، ما نادوا قط : يا للعرب ! فدعاهم صلى الله عليه وسلم إلى ما يحييهم : إلى طرح أصنامهم وآلهتهم ، وعبادة الله إلهاً واحداً لا إله إلا هو ، وإقامة الصلاة التي تنهى عن الفحشاء والمنكر ، وإيتاء الزكاة التي تصلح حال الأمة ، وتؤلف بينها ، وتحمي فقيرها بما لا يضر بذله غنيها ، وصوم رمضان وحج البيت وشهادة المؤتمر الأكبر في عرفات ، واستكمال مكارم الأخلاق ، وطرح عصبية الجاهلية ، واستبدال الخلاف والتنازع بأخوة في الله ، ووحدة في الإسلام ، فأجاب منهم من كتب الله له الحسنى ، وأبى من سبق عليه الشقاء ، فصار الناس فريقين : مؤمنين وكافرين ، وصار القرآن ينزل بـ (يا أيها الذين آمنوا) بعد أن كان ينزل بـ (يا أيها الناس) ، ولم يبق إلا نسب الإسلام نسب ، وبطلت من دونه الأنساب ، فغدا النبي صلى الله عليه وسلم يصلي تالياً شتم عمه الأدنى أبي لهب الهاشمي القرشي (تبت يدا أبي لهب وتب) ويقول عن سلمان الفارسي الأعجمي : سلمان منا أهل البيت . وتطوى بنت أبي سفيان رضي الله عنها الوسادة عن أبيها وتقول إنما أنت رجس ، وقد كان (رحمه الله) يومئذ على دين قومه ، ويستأمر رسولَ الله في قتل شيخ المنافقين ولدُه الذي انحدر من صلبه ، ويقول أبو بكر رضي الله عنه لابنه (وكان مع قريش) : لو تراءيت لي في المعركة لقتلتك . لا تأخذهم في دين الله شفقة ولا رحمة ، ولا يعدلون برابطة الدين رابطة ولا رحماً ، ويؤيد الله المسلمين بنصره فينصرهم ببدر وهم أذلة ، فيقتلون المشركين ولم يقتلوهم ولكن الله قتلهم ، ويثبتهم في أحد ويرسل على الأحزاب ريحاً وجنوداً لم يروها ، وينزل أعداءهم من اليهود من صياصيهم . ولبثوا على ذلك حتى أراد الله إكمال الدين وإتمام النعمة ، فجاء نصر الله والفتح ، ودخل الناس في دين الله أفواجاً وعم الإسلام الجزيرة وألف بين أهلها (ولو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم) واجتمع المسلمون في حجة الوداع ، وقام صلى الله عليه وسلم يخطب مبيناً ومودعاً ومبلغاً ، فقال[1] :

أيها الناس اسمعوا قولي ، فإني لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا بهذا الموقف أبداً . أيها الناس إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا وكحرمة شهركم هذا ، وإنكم ستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم ، وقد بلغت ، فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها وإن كل ربا موضوع ، ولكن لكم رؤوس أموالكم ، لا تَظلمون ولا تُظلمون

أيها الناس ، إن الشيطان قد يئس من أن يعبد بأرضكم هذه أبداً ، ولكنه إن يُطع فيما سوى ذلك فقد رضي به مما تحقرون من أعمالكم ، فاحذروه على دينكم

أيها الناس ، إن لكم على نسائكم حقاً ، ولكم عليهن ألا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه ، وعليهن ألا يأتين بفاحشة مبينة ، فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم أن تهجروهن في المضاجع وتضربوهن ضرباً غير مبرح ، فإن انتهين فلهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف ، واستوصوا بالنساء خيراً فإنهن عندكم عوان لا يملكن لأنفسهن شيئاً ، وإنكم إنما أخذتموهن بأمانة الله ، واستحللتم فروجهن بكلمات الله ، فاعقلوا أيها الناس قولي فإني قد بلغت ،

(١) رواية ابن سعد

وقد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبداً ، أمراً بيناً : كتاب الله وسنة نبيه

أيها الناس ، اسمعوا قولى واعقلوه ، تعلمنّ أن كل مسلم أخ للمسلم ، وأن المسلمين إخوة ، فلا يحل لامرئ من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس منه ، فلا تظلمن أنفسكم ، اللهم هل بلغت ؟

قالوا : نعم . قال : اللهم اشهد

وانتقل صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى ، وخرج المسلمون لينشروا دين الله ، وينقذوا العالم ، فكانوا يعرضون على من يلقون خصالاً : أولاها أن يدخل فى الإسلام فيكون واحداً منهم له مالهم وعليه ما عليهم ، لا يفرق بين المسلمين اختلاف لون ولا تباين لسان ، ولا يفضلون عربياً على عجمى إلا بالتقوى ؛ فإن أبى رحمة الله وكره دين الحق ، عرضوا عليه الثانية وهى أن يدفع الجزية فيكون له ذمة الله وذمة رسوله وذمم المسلمين ، ويكون فى حرزهم وكنفهم ، حقه محفوظ له ، وحريته مضمونة ومعابده قائمة ، وإن تعدى عليه مسلم انتصف له منه ، ثم إن الجزية شىء لا يكاد يذكر ، دراهم قليلة هى دون ما على المسلم من زكاة أو عشر أو غير ذلك ، ثم إنها يعفى منها الصبي والشيخ العجوز ، والراهب المتعبد ، فإن أبوها فقد آذنوا بالحرب . وكذلك فتحوا البلدان ، فلم تكن إلا سنوات حتى تغلغل الإسلام فى أقاصيها .

ولم يمض القرن حتى غدت بلاد العجم كلها مسلمة الدين ، عربية اللسان ، ونشأ من كل مدينة فيها علماء فحول كانوا أئمة الدين وكانوا أعلام الأدب وكانوا مصابيح الهدى ، وحسبك بالبخارى والرازى والطبرى والمروزى والتبريزى والجرجانى والأصفهانى والقزوينى والفيروزابادى[1] ممن نشأ فى بخارى والرىّ وخراسان ومرو وتبريز وجرجان وأصفهان وقزوين وفيروزاباد . ممن كان من أصل عربى أو كان من أرومة فارسية كأبى حنيفة وسيبويه والحسن وابن سيرين والزمخشرى ، من العلماء أو من الأدباء كابن المقفع وبشار وأبى نواس وابن الرومى ، ولم يكن فيهم من يرضى أن تقول له أنت أعجمى يخدم العربية ، بل هم لا يرون أنفسهم إلا عرباً ، ولا يجدون شتماً أبلغ من أن تقول لواحدهم « أنت شعوبى » قال الزمخشرى أستاذ الدنيا جار الله فى مقدمة مفصّله : (الحمد لله على أن جعلنى من علماء العربية ، وجبلنى على الغضب للعرب والعصبية ، وأبى لى أن أنفرد عن صميم أنصارهم وأمتاز ، وأنضوى إلى لفيف الشعوبية وأنحاز ، وعصمنى من مذهبهم الذى لم يجد عليهم إلا الرشق بألسنة اللاعنين والمشق بأسنة الطاعنين)

وسبب ذلك أن الإسلام امتاز من سائر الأديان ، بأنه دين وقومية جامعة ، وأنه سياسة وأنه تشريع (ولما كان الإسلام[1] ديناً وجنسية ، وقد رفع الحدود بين الأمم اللاتى تدين به ، وكره أن يدعى فيها بدعوة الجاهلية ، وجعل أصحابها جميعاً إخواناً يؤلف مجموعهم كتلة واحدة لا فضل فيها لعربى على عجمى إلا بالتقوى ، ولما لم يكن بد للمجموعات البشرية من رابطة تتعصب لها وتعتصم بعروتها ، فإنه وهو دين التوحيد ودعوته للاتحاد . . . كان لا بد للمسلمين من وحدة عامة ، وعصبية عامة ، ولسان عام ، وقد نبت الإسلام عربياً ، وبعث على لسان رسوله العربى ، ونزل قرآنه بلسان عربى مبين ، فصح لهذا أن يمتزج الفرع بأصله ، ولن يتحد الإسلام بالعربية ، وأن يكون لسان شعوبها قاطبة ، وقد نجحت هذه النظرية أتم نجاح ، وأخلص المؤمنون العمل بها ، فعمت العربية ذلك المتبسط الأسيوى والأفريقى إلى حدود جبال البرنة فى أوربا ، وذلك ما يعجب به علماء الاجتماع الآن)

فكان انتشار لسان العرب فى هذه الأمم كلها واستعرابها قاطبة من عمل الإسلام الذى جعل العربية لسان العبادة بين العبد وربه . وأوجب على كل مسلم تعلم شىء منها يقيم به صلاته ، وجعل فهم القرآن وهو غاية كل مسلم معلقاً على درس العربية وفهمها ، وجعل حب النبي وقومه من أصول الإسلام ، كما أوجب الحج لتكون هذه البقعة العربية القاحلة وهذا الوادى العارى غير ذى الزرع أحب إلى المؤمن من داره وبلده

* * *

على هذا الأساس أنشئت الدولة الإسلامية الضخمة ، وقامت تلك الحضارة الجليلة وبنى الماضى المظلم ، ولا صلاح لآخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها

ثانوية (كركوك) علي الطنطاوي

* * *

تصويب : وقع فى أوائل مقالى (طالب علم) فى العدد (٣٢٨) من الرسالة كلمة (فيتحامونه) وواضح أنها خطأ مطبعى صوابه (فيتحاموه) على النصب

(١) وأمثالهم وأمثال أمثالهم من علماء خراسان وما وراء النهر ، ممن ذكر فى معجم البلدان ومن لم يذكر

(١) هذه العبارة إلى آخرها من كلام الشيخ محمد سليمان رحمه الله